حرام قطعا

بقلم

محمد الخضرى عبد الحميد

ـ من منكم قال ان الطلاق حلال؟.. خذ عنى هذا يا استاذ .. انه حرام وابغض الحرام ! .. انه حرام قطعا !.. اكتب هذا ياسيدى عن لسانى ..وعلى مسئوليتى ..!

فى الواقع انه كان يمكن اعتباره رايا نطق به صديقنا «عبد العاطى» فى معرض اخذ آراء « الشلة » ! .. غير ان الانفعال العنيف الذى اجتاح عبد العاطى العزيز وهو يدلى للصحفى الذى أخذ يسجل آراءنا فى تحقيقه ، جعلنا جميعا نرمقه فى دهش وعجب ! .. فالامر عادى لا يستأهل كل تلك الحماسة المتدفقة من صديق ، عاشرناه حديثا ، فعهدناه وقورا ، وما الفنا ان نراه الا متزنا هادئا صموتا .. !

ويبدو أن (عبد العاطى) قد ثاب الى وعيه ، وأدرك من المعانى الصامتة الطافحة فى عيوننا ، انه تسرع .. أو كشف نفسه بغير داع، فحاول أن يردف ضحكة عالية تعقيبا على ما قال ، ليبدو الامر وكأنه اعتيادى .. وكان الراى الذى قيل على ذلك النحو ، انما جاء بفورته تلك من باب التطرف فى الصياغة من باب التأثير على المستمع مثلا .. او على محمل المزاح المصبوغ بالجد ، ليس اكثر !

بيد ان محاولته لم تنطل على اى من الجالسين فى شرفة « كازينو اوبرا » عقب ارفضاض ندوة (نجيب محفوظ)!. حتى الصحفى صاحب الاستطلاع كان اكثرنا اهتماما بالامر .. وهكذا انقلب الموضوع من ندوة فرعية صغيرة للاستفتاء وجمع الآراء حول مشكلة الطلاق .. الى « لجنة » مشكلة ـ كأنما شكلت خصيصا ! ـ للتحرى والتقصى فى ظاهرة حماس السيد عبد العاطى فى حكاية الطلاق ، ولم وكيف يصفه بأنه حرام .. بل وأبغض الحرام .. بل وحرام قطعا !

وسرعان ما تغلبت حمية المجموع على تحفظ الفرد .. فتداعت استحكامات

عبد العاطى .. وانفتحت ـ اضطرارا وعلى الرغم منه ـ مغاليق قلبه ! :

ـ « ... سترون اننى محق .. فلست ارى فى الطلاق حلا لاشكال .. او برءا من داء ! .. فلقد طلقت من قبل ! .. طلقت (ليلى) ! .. ولست الومكم ـ لا ولن اعاتبكم ـ اذا انتم انفجرتم الآن ضاحكين ساخرين ثم اوسعتمونى من فوركم سخرية ولذعا !.. فظواهر الامور قد تجركم الى شىء من هذا ، ولا تثريب عندئذ ـ وكما قلت ـ ولا عتاب !

اجل ! .. عبد العاطى طلق ليلى!.. (وايه يعنى) ؟!!.. واحد من مئات طلقوا ، وآلاف يطلقون !.. أوليس هكذا ، وعلى هذا النحو ، تفكرون ؟!.. ولكنى اقول لكم : كم انتم ـ لو انكم فعلتم ـ مخطئون !.. فعبد العاطى وليلى .. لم يكونا مجرد زوجين جاء الطلاق فـ (صحح الوضع) بينهما !

انا شاب ـ وكلكم تعرفوننى ـ من النوع «المغلق» !.. أرض بكر ! ..دنيا عذراء منطوية على « مكاسبها » من سكينة النفس ، واناقة الفكر ، ورهافة الحس .. والبعد كل البعد عن مجال العواصف والأنواء !..

وابادر فأؤكد اننى عاطفى !.. جدا، صدقنى ياعزيزنا المحرر الصحفى ولكن ليست هى العاطفية الهوجاء التى تتخيلون فكمثال .. كنت اعشق من شغاف القلب لقطة مشحونة بحرارة الشجن اراها على الستار الفضى من احدى ممثلات السينما ! .. قد ارى محيا ناضرا يتفجر شبابا ورواء ، وسحر انوثة ، فاظل انهل على كثب من نبع هذا (الجلال) فى تهجد العابد الصامت ـ صادق التقى والورع ـ دون محاولة الاقتراب العملى ، والاشتباك السافر !

سامضى فى قصتى قدما، اذا وعدتمونى ان : لا تفكهة ، ولا تعليق ساخر !

عشت ضانا بقلبى « السليم » أن اطرحه فى (سوق) الغرام العادى المبتذل ، شفقة عليه ، وتكريما لنصاعته ان تداس فى ساحات الهوى المأثورة .. فتذهب احلامى الغالية بددا ، وابوء بالعذاب والحسرات ..!!

انا معكم فى انه قد يكون هذا شيئا من الشذوذ .. غير انكم لو تمعنتم معى قليلا لأدركتم ان لا شذوذ ولا (نشوز) هنالك !!.. والا فلماذا ، وبعد ان احل قلبى احلام مستقبله هذا المكان السامق، اسمح لى وله ان (ننزل) الى مستوى حب رصيف الاتوبيس ، ومغامرات سفح الهرم وذكريات هوج من وحى الطريق الصحراوى وانتصارات رخيصة سهلة لم تعد ـ فى عصر الصاروخ والتليفزيون!ـ تكلف كثير حذق ، او قدسية نزال ؟!.. لا لا ! .. ثم لا ... !!

وعلى هذا فقد اقمت حول قلبى سورا ، ونذرته للحمة تتفق ذراها ورصيده من شاعرية الهوى ، وجلاله وضخامة مفهومه !

ومضت ايامى وانا بهذا النهج سعيد !.. جد سعيد ! فالعاطفة النقية ـ كما جربت ـ تلهمنى حبا للحياة وللناس اعمق واغزر... واخشى ماكنت اخشاه ان أنزل بقلبى الى المعترك السائد، فلا اجنى سوى الصدمة لنفسى .. والعطب لقلبى !

ولكن .. وهنا تأتى الرياح .. ! جاءت الرياح كما لاتشتهى السفن.!

ذات ليلة لا أنساها .. كنت اعكف في حجرتي على وضع قصيدة اتغنى فيها بجمال بلدي ونضارة عوده الفتي وهو يشق طريقه الوعر وسط جسام المعامع! .. وطرق البـاب .. و .. ودخلت ليلى .. !

اولا : ليلى ـ ايها الاعزاء ـ ليست كما سوف تتوهمون : كاعب حسناء ولا هي (زنبقـة) ولا اى شيء مما سيخطر في بالكم من مثيلات تلك النعوت والصفات التي اعتاد على استعمالها القصصيون ونحن معشر الشعراء .. !

ليلى فتاة عادية سمراء في ربيعها السابع عشر .. وسيمة ، متعلمة ، من جاراتنا المكافحات الطيبات ! .. دخلت تتعثر في خجلها والحياء العذري الذي يقتحم كل الحواجز والسدود.. وفي صوت رقيق متلعثم قالت :

ـ استاذ عبد العاطي .. لا مؤاخذة .. اصل انا خجلت اكلمك في الشارع..

ـ آنسة ليلى ؟ .. اهلا ..تفضلي.

ـ شكرا .. آ .. ممكن والله اجد عندك مرجعا في (الاقتصاد) ؟

ـ آ .. طبعا موجود .. الآنسة يا ترى .... ؟

ـ ناوية ادخل مسابقة .. ودرست ..ولكن.. هناك نقاط تلزمها مراجع..

ـ تفضلي .. هذا المرجع موسوعة وافية .. و.. وعلى العموم .. انا.. انا يعني على استعداد لشرح اية نقطة غامضة .. او .. يدق فهمها ....

ـ شاكرة جدا ...

شكرتنى وخرجت .. وبعد يومين عادت .. وبعد أسبوع جلست قليلا.. وبعد اسبوعين احسست ـ انتبهوا لى جدا ـ بشىء يسير من النفور لجراتها الناعمة الرقيقة !

كرهت منها هذا «التهجم» الاصرارى على « المحراب ! » الهادىء ، الغارق فى الدعة والسكون ! .. ولم تلبث هذه المشاعر أن تحولت الى .... خوف !!

تصوروا ... خوفا ! ، خوفا عليها هى .. منى انا !!

انى ادرك الآن المعانى الخبيثة او النزقة التى ستنحدر اليها استنتاجاتكم الطائشة ! .. ليس كما ستظنون اننى خشيت عليها من « عدوان » قد يقع منى ! .. ابدا ابدا .. لقد خفت عليها من شىء أنا أدرى به لانه ، وكما قلته لها ، كان هكذا :

ـ آنسة ليلى..انا سعيد بصداقتك الطاهرة .. يثلج صدرى انكبابك على التثقيف والاستزادة من العلم ..ولكنى مضطر الى أن أكون فظا بعض الشىء فارجو أن تشفقى على نفسك ، فلا تمدى بصرك لابعد من هذا !

ودهشت ليلى ! .. صدمت ! .. روعها ذلكم القول الجهم العجيب .. !

وكنت اتعذب ، ولكن بضمير راض!.. فلم تكن بعملية « هدم احلام » بقدر ما كانت رغبة صادقة نقية فى حماية عالمها الخاص من زلازل ما كان هناك مفر من حدوثها ! ..

ولم اتركها طويلا فى الحيرة القاسية التى سببتها لها كلماتى ! :

ـ يا ليلى .. انا ارق مما تتصورين .. فهى اذن ليست قسوة منى اذ اصارحك من الآن بأننى اخاف عليك من وهج قلبى ! .. اقول هذا وانا اوقن ان « كلمة حب » قد ربضت الآن على شفتيك تتاهب للانطلاق ، فانا اراها متحفزة الى الاندفاع ! .. لا تقوليها يا ليلى حتى اقول انا لك ما يساورنى من قلق وجزع عليك ! .. ان قلبى يا ليلى بركان محتدم الأوار ، فلا تغرنك الثلوج التى تغطى سطحه البارد ! .. اشفق عليك من اتونه الملتهب الموار .. و .. ماذا تريدون بالله بعد هذا ؟!.. اوليس قولا واضحا جليا ؟!

انها ليست لقطة «رومانسية» من من تحفة كلاسيكية .. ولكنها صورة صادقة قدمها انسان آمن بشىء فراح يحذر عزيزا لديه من الوقوع فيما يؤمن بما لا مندوحة من حدوثه .. قبل أن يحدث !!

ولكن ليلى ـ يا اعزائى ـ كانت .. تحبنى !

وانا ـ لاانكر ـ احببتها .. !

وما ان رايتها « اهلا » لامتلاك كل الرصيد المدخر بين الجوانح ، حتى فتحت لها ـ على امتداد المصاريع ـ مغاليق الخزائن ... !

وتفجر حبنا فريدا .. بركانيا.. يزيده تقدم الايام توقدا وضراما ..كنا نعيش معا فوق ذرى شواهق هيهات لعاشقين آخرين ان يحلما بالوصول الى (سفوحها) !!

حتى انسكبت على البركان الملتهب ثلوج الطلاق ... !

طلقت ليلى ! .. عاش حبنا ـ كما ولد ـ فريدا .. « غير عادى » ، فلما سمح كلانا للسفاسف المعتادة ان تتخذ لها مدارا حول كوكبينا .. بدات نتف الجليد تساقط على بركاننا المتأجج ، فاخذت حرارته تخمد رويدا ، حتى أطفأت آخر جذواتها وثيقة «المأذون» !

وعشت بعيدا عن ليلى ، وقد رحت أعيد ترتيب « اطلال ! » معبدى القديم، من جديد ! .. وبتواتر الايام هالنى أن افتقد « السكينة » التى كانت ترين على قبل ان أعرف شيئا اسمه (ليلى)!

ورحت استعيد فى خلواتى ظروف خصامنا .. فاذا بى اراها على البعد تافهة صغيرة صبيانية ، وهى التى كانت ـ ابان حدوثها ـ مضخمة مكبرة عن اجرامها الحقيقية بعشرات الامثال ..!

حادث عرضى انفردت ليلى بالفصل فيه ، فزارت كرامتى ... !

امر بسيط طلبت انجازه .. فتوانت .. فثارت ثائرتى .. ! تأخير بسيط منى خارج البيت .. فعاتبتنى بعصبية .. فتلقت الزجر والتانيب منى !

توافه !.. انها كلها تبدو لى توافه!.. افتراها هى قد ادركت هذا الآن ؟ ! . ها نحن قد افترقنا وقد حصلنا على الطلاق .. وانى لها الهروب من حصاد الذكريات التى بذرناها، وجنينا قطوفها سويا ؟ !

وانقلب هدوئى عذابا ممضا .. ولم استطع ان اقطع فى الامر بحكم ما .. وكنت لا اعدم ان ارى ليلى فى غدوى أو رواحى ، فلا تنبىء سحنتها الهادئة المستسلمة لواقعها الجديد بشعور معين ! .. حتى زين لى شيطانى الاقدام على حركة « محك اختبار » عملى ! .. اعلنت فى الحى كله نبأ خطوبتى الجديدة !

وزغردت بعض نسوة بيتى ! .. وشرب الجيران (شربات الفرح) الجديد! فليلى ساكنة صامتة .. بل واكاد اقول انها : (طبيعية للغاية) !

وصبرت وقد طاش سهمى الاول ، دون ان يأتى الى بصدى ! وكنت أرى ليلى لماما فكانت تتنكب طريقى محاولة أن تظهر انها لم «تتشرف» يوما بمعرفتى! .. وعندئذ قررت فى جد أن لا يضيع « شرباتى » الاول هدرا .. وأن تكون خطبتى حقيقة لا وهما !

وهكذا راى الجيران ـ لاول مرة ـ (سلوى) تزورنى ، وتسير برفقتى ! ـ

وبدات اعد العدة لـ (ضبط) عواطفى على شخصية سلوى ففشلت كل جهودى فشلا ذريعا ، ووضح لى بما لا يدع للشك مجالا أن هيهات لى ان اهنأ مع غير تلك التى قاسمتنى ايام صفوى وكدرى ! .. حسنا .. ولكن ما لنا بها وها هى تحيا راضية بدونى ؟!

سؤال لو لم تات الاجابة عليه فى أوانها لحدث ـ لى ولها ـ عذاب هائل ما كان لاى منا ، كلينا ، منجاة منه ..!

علمت ذات صباح ان ليلى مريضة.. وحاولت ان انأى بفكرى عن ملحقات النبأ فلم استطع .. فان (ليلى) هى ليلى على اية حال ..!!

وما اشعر الا واحدى قريباتى تنبئنى بأن ليلى جاهدت كثيرا لتؤدى دور

للامهتمة بشيء ، فلما لم تقو على تكملة الدور خرت صريعة الاخفاق والخذلان فوق سريرها ... !

لقد كانت تظهر امام الناس طبيعية .. فاذا ماخلت الى نفسها سكبت دم قلبها الجريح ، وذوب روحها المهان ، حتى اكتشف اهل بيتها ... سرها !

عند ذاك انذرت (سلوى) فى حزم ان لا تطمع فى شيء منى ، فما عدت اصلح لها ، ولا لأى واحدة اخرى سواها .. !

وبات امر ليلى متوقفا على: ابنا الذى يبدا فيخفض جناح الكبرياء ؟ !

لقد ابت كرامتى بادىء ذى بدء ان تقبل لى الرجوع اليها صاغرا.. ولكنى احسست بأن الصراع غير متكافىء ، وانني اذ استعمل قوتى فى اذلالها وهى الضعيفة ـ لابدو فى مرآة ذاتى جلفا قاسيا ..!

ولم يدم الاعصار طويلا .. اذ لم يات اليوم الثالث لمرضها حتى كنت ايمم بقدمى ـ راسا الى .... بيتها .. !!

دخلت على ليلى وسط ذهول (بعض) افراد اسرتها .. وبغير ادنى ترفع ركعت ، حاسر الراس متهدلا ، حول فراشها .. !

وانتعشت حبيبتى ، وتألقت اشعاعات الحياة فى وجهها الشاحب الذاهل الهضيم .. وابتسمت فى مرارة .. و .. بصعوبة .. تمتمت من بين شفتيها اللتين سلب المرض ارجوانهما :

ـ و ... هان عليك .. تأخذ غيرى .. يا عبد العاطى ؟!

كان خنجرا ادمت به قلبى .. وكان الجواب معدا فى داخل جيبى .. فقد اخرجت من سترتى ورقة مطوية نشرتها مزهوا امام عينيها ، فوق صدرها الذى انسدلت عليه الاغطية وانا اقول :

ـ .. انت يا ليلى زوجتى الآن كما كنت .. لقد عدنا .. رددتك يا ليلى باشهاد رسمى !

و .. ولدهشتى لم تعبأ بالقول !.. لم تثب من رقادها تافزة ترقص وتغنى كما وطدت العزم على أن ارى ! .. ابدا . . فقط ارتعشت شفتاها المقددتان فى بسمة باكية .. وسكبت عيناها ـ اللتان عاد اليهما غبش اليأس ـ دمعتين خنقا تعليقها المتهدج الذى زفرته مع آهاتها الحرى :

ـ .. تأخرت يا عبد المعطى !

نعم ! .. كان قد سبق السيف العذل كما تقولون ، وماتت ليلى صبيحة ذلك المساء المشئوم !!

وجمنا جميعا .. و .. حتى الصديق الصحفى نسى استفتاءه كلية وانصرف هاربا من حرج الموقف ، معتذرا ، وسط سكوننا المطبق ، تشيعه كلمات (عبد العاطى) المحمومة ، الثائرة :

ـ .. وتقول لى : طلاق ؟ .. وحلال او حرام ؟! .. أكبر حرام يا استاذ !..

حرام قطعا يا عزيزى ... !!